المسلمون في أوربا :

قصص من الأندلس

— ٥ —

أمير المؤمنين

عبد الرحمن الناصر

تأليف
الدكتور سعد اسماعيل شلبي

الناشر عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - بالقاهرة

المسلمون فى أوربا :

قصص من الأندلس

مقـــدمـــة

ولدى العزيز . . .

إنك تسمع كثيراً عن الحضارة التى تعيش فيها أوربا الآن ، ولك أن تعتز بأن أجدادك العرب هم سبب هذه الحضـارة ، فقد ذهبوا إلى أوربا ســنة ٩٢ هـ وأقاموا دولة الأندلس ــ مكانها أسبانيا والبرتغـال الآن ــ ومكثوا بهـا حوالى ٨٠٠ سـنة فنقلوا إليهـا العلوم العربية ، ونشروا فيهـا التقدم والعمران ، فاقتبست أوربا من هذه الحضارة ، وجعلتها أساس نهضتها الحديثة .

ألا يستحق هؤلاء العرب أن تعرف تاريخهم ، وما تضمن من أمجاد وبطولات ؟ !

هذا ما تجده فى « **قصص من الأندلس** »

ولمكتبة « عالم الكتب » ولصاحبها الأستاذين :

« محمد طاهر ــ ويوسف عبد الرحمن » الأمر المشكور فى نشر هـــذه المجموعة ، وتقديمها إليك فى هذه الصورة المشرقة .

ونسأل الله العون والتوفيق .

« المؤلف »

(١)

فى قصرِ أميرِ الأندلس « عَبدِ اللهِ بنِ الحكم » بِقُرطُبَةَ جَلَست « ماريا » الأسبانيَّـةُ تُرضِـعُ وَلِيدَها « عَبدِ الرَّحمن » .

نَظَرَتْ إِلَيْهِ مُعْجَبَةً بجَمالِه ؛ وَجْهٌ مُشْرِقٌ كأَنَّهُ الْبَدْرُ ، وَشَعْرٌ أَصْفَرُ لامِـعٌ كأنه أَشِعَّةُ الشَّمْس . . فأخَذَت تُلاعِبُهُ بِابْتِسامَةٍ هادِئَةٍ وَصَوْتٍ حَنون :

هَنِيئاً لَكَ يا بُنَيَّ : فقد أَوْصَى جدُّكَ « عبدُ اللهِ » أن يكونَ وَالِدُك « محمدٌ » أَمِيراً عَلَى الأندلسِ من بَعْدِه ، وَستكونَ أَنْتَ ابنَ أَمِيرِ الأَنْدلُس ! ! . . أَمَّا أنا فَسأكونُ أَمِيرةَ الأَنْدَلسِ . . وأُمَّ الأمِيرِ ! ! فابْتَسَمَ الطِّفْلُ ، وَتَخَيَّلَتْ « ماريا » أَنَّه يَفْهَم ما تقولُ فزادت فَرْحَتُها وضَمَّتهُ إِلَى صدرِها ، وَأَخَذَت تُقَبِّله ، وَاسْتَمَرَّت تُداعِبُهُ :

ابتسامةُ أَمِيرٍ وَابنِ أَمِيرٍ واللهِ يا بُنَيَّ الحبيب .

* * *

وَبَيْنَما كانَتْ ماريا تُداعِبُ طِفْلَها بهذا الكلامِ سَمِعَتْها الجارِيَةُ القُوطِيَّة « تُوطا » — زَوْجَةُ الأميرِ عبدِ الله ، وكانت ذات عُنْفٍ وَشَراسَةٍ ، وَرِثَتْهما عن القوطِ — سُكّانِ أَسْبانيا قَبْلَ الفَتْحِ الإسْلامى ، فَزاد حِقْدها عَلَى ماريا ، وَعَلَى زَوْجِها محمدٍ ، ووليدِهما عبدِ الرحمن .

وَسببَ هذا الحِقْدِ أَنَّ « توطا » كانت أُمَّ « المُطَرِّف » الولدِ الثّانى لِعَبْدِ اللهِ وَلَوْلا محمدٌ لَوَرِثَ المُطَرِّفُ المُلْكَ بَعْدَ أَبيه .

وكانَ المطرِّفُ فَظًّا غَليظَ القَلْبِ مَكْروهًا مِن إخْوتِه ، وَمِنْ عامَّةِ الأندلسيِّينَ ؛ وَكانوا جَميعًا يَحْمَدونَ اللهَ الَّذى نَجّاهم مِن هذا الفَظِّ الغَليظِ فلمْ يَكنْ وَلِيًّا لِعَرْشِ الأندلُسِ ! . وَأَنْعَمَ بِفَتًى جَمَعَ بَيْنَ شَجاعَةِ القَلْبِ ، وَسَماحَةِ الخُلُقِ هُوَ « محمدٌ » أَكْبَرُ أَبْناءِ الأميرِ عَبْدِ الله .

* * *

تَمَنَّتْ « توطا » أَن يَلْقَى « محمّد » مصْرَعَه فى الحُرُوبِ الكَثيرةِ الَّتى كانَ يخوضُها حَتَّى يُفْسِحَ الطَّريقَ أَمامَ وَلَدِها ،

ولـكنَّ أُمْنِيَّتَها لم تَتَحَقَّقْ فكانَ النَّصْرُ حَلِيفاً لمحمدٍ دائماً ، عَلَى الرَّغْمِ من ضَراوةِ الْحروبِ وَشَراسَةِ الاعْداء ، وكانتْ انْتِصاراتُه سَبَبًا لِرِضا والِدِه ، وحُبِّ إخْوَتِهِ وإقْبالِ الأندلُسِيِّين عَلَيْهِ .

* * *

جلَستْ « تُوطا » مَعَ ابْنِهَا « الْمُطَرِّفِ » فى خَلْوَةٍ فقالتْ لَهُ : والِحْقدُ يكادُ يمزِّقُ قَلْبَهَا :

والِدُكَ حَرَمَكَ مِنْ مُلْكِ الأنْدَلُس ، وأعْطَاه مِنْ بَعْدِهِ لِأخِيكَ « محمدٍ » ! لِمَاذا ! ؟ هَلْ أنتَ أقلُّ مِنهُ ! ؟

فَرَدَّ « المطرفُ » بِفِطْنَتِهِ الْمَعْهُودَةِ :

لا . . لَسْتُ راغِباً فى مُلْكِ الأندلُسِ ، ولا يَهُمُّنى تولَّاه محمدٌ ، أو غَيْرُ محمد ! !

قالتْ أُمُّه :

لقد سَمِعْت الْيَوْم « ماريا » تُناجِى طِفْلَها ، وتَقولُ لَه : « أميرٌ ، وابنُ أميرِ واللهِ » .

إنّـنِى لا أُطِيقُ هذا الْـكلام ! !

إنَّ ماريا تَفْتَخِر عَلَىَّ مِنَ الآن . . فَمَاذا تَصْنَع عِنْدَما تَصِيرُ مَلِـكَةً عَلَيْنا ؟ ! أَنْقِذنى يَا بُنَىَّ . . أَطْفِىء النَّارَ الَّتِي فِى قَلبِى ! !

قال المطرفُ بِنَطْرَسَةِ :

— وماذا أَصْنَع ؟ ! أَأَقْتُلُها ؟ ! !

— لا . . لا تَقْتُلْها . . فلو كان قَتْلُهاَ يُطْفِئُ نارى لَجَرَّعْتُها السُّمَّ ؛ واسْتَرَحْتُ . . ولـكِنِ . . اقْتُلْهُ هُوَ . . اقْتُلْه ! !

قال عَلَى الْفَوْر :

— أَقْتُلُ مَن ؟ ! أَقْتُلُ محمدا ؟ ! !

— نعم ! ! اقْتُلْه ؛ لِتـكونَ أَميراً عَلَى الأندَلُسِ ! ! وضَغطَتْ على أَسْنانِها واسْتَمَرَّتْ تقولُ :

وتكونَ تُوطا أُمَّ أَميرِ الأندَلُس .

— أَماَ يَكْـفِيكِ الآنَ أَنَّكِ زَوْجَةٌ لِلأمير عَبدِ الله ، وأُمٌّ لِوَلَدِه « المطرف » ؟ !

فقالتْ :

الأميرُ عبدُ اللهِ يحتقِرنى ؛ ويحتقِرُك . . إنَّه لا يُعامِلُنى كما يُعامِلُ بَقِيَّةَ جوارِيه الأسْبانِيَّاتِ . . ولولا أنِّى أنْجبْتُ له المطَرفَ لرَمَى بى فى شَوارِعِ قُرْطُبَةَ ! ! ولوْلا خَوْفُه مِنْكَ لشَرَّدَكَ فى البِـــلاد ! ! إنَّ جَمِيعَ إخْوتِكَ يَكْرَهُونَكَ . . يَكْرَهُونَك ! !

فَإنْ أرَدْتَ أن يكونَ لكَ السُّلْطانُ ، ويحترِمَك النَّاسُ فاقْتُلْه أقْتُل أخاكَ ، لِتَكون أمِير الأنْدلس ! !

هَزَّ المطرفُ رأسَه فى صَمْتٍ . . ثمَّ قالَ : سأفعل !

* * *

وفى وقْتِ السَّحَرِ يَخْرُجُ محمَّدٌ من مَنْزِله لِيُصَلِّى الْفَجْرَ بالمسْجِد الجامع بِقُرْطُبَةَ ، فانْقَضَّ عليْهِ شابٌّ مُلَثَّمٌ طَعَنَهُ عِدَّةَ طَعَناتٍ نافِذَةٍ بِخِنْجَر مَسموم تَرَكَتْهُ جُثَّةً هامِدَة غارِقَةً فِى الدِّماء ! !

وفى وقت السحر خرج محمد من منزله ليصلى الفجر بالمسجد الجامع بقرطبة فانقض عليه شاب وطعنه عدة طعنات نافذة بخنجر مسموم

* * *

ومَعَ أَوَّلِ ضَوْءٍ للصَّباحِ رَآهُ النَّاسُ ، فَفَزِعوا . . وقالوا :

قُتِلَ وَلِىُّ الْعَهْدِ . . ! ! قُتِلَ الْفَتَى السَّمْح ! !

وطار الْخَبَرُ إلى والِدِهِ الأميرِ عَبْدِ اللهِ ، فَحَزِنَ أَشَدَّ الْحُزْنِ ، وكاد قلْبُه يَتمزَّقُ مِنَ الْحَسْرَةِ والألم . . وشارَكَ فى الْحُزْنِ عَلَيْهِ إخْوَتُه جَميعاً .

وتظاهَرَ المطرَّفُ بالأسى . . حَتَّى يُخْفِىَ جَريمته !

أَفاقَ النَّاسُ منْ هَوْلِ هذه الصَّدْمةِ وأخذوا يَتَساءلون : مَن الْقاتلُ ! ؟ مَنْ ولِىُّ الْعَرْشِ مِنْ بَعْدِهِ ! ؟ هل يَتْرُكُ الأميرُ

عبدُ اللهِ وِلايةَ عَرْشِهِ لِهذا الْفَتى الأَحْمَقِ . . « المُطرف » . . ؟ ! .

وَهَلْ يَرْضَى إِخْوَتُه عَنْه ؟ ! وَهَلْ يَقْبَلُ الأندلسيُّون ؟ !

* * *

وَنَتْرُكُ هَؤُلاء جَمِيعاً يتساءلون . . وَنَذهَب إلى « ماريا » إنَّها لم تَكَدْ تَتَلَقَّى خَبَرَ مَصْرع زَوْجِهاَ حَتَّى صَرَخَت باكِيَةً ، وَغَرِقت فى دُموعِها . . ثمَّ بَدَأَتْ حَيَاَةً بائسةً . . تُعَانى فيهاَ الْهُمُوم وَالآلام ! !

* * *

أَماَّ وَليدُها « عبدُ الرَّحْمن » فلم يُحِسَّ بِشَىْءٍ مِنْ ذلك كلِّه ، ولم يَشْعُر بوالِدَتِهِ تحْمِله خارِجَةً منْ جِناحِ الأمارَةِ فى قَصْرِ الأمِير إِلَى جناحِ الجوارى ! ! فقد كَانَ لا يزَالُ فى الشَّهْرِ الأوَّلِ مِنْ عُمْره . . فلَمْ تُفاَرِقه ابتِسامَتُه الْحُلْوَةُ وَإِشْرَاقتُه السَّمْحَة ! !

* * *

وَلَم يَخْفَ عَلَى ذكَاء الأميرِ عبدِ اللهِ ، كما لم يخْفَ عَلَى ذكاء

أبْنَائِه جَمِيعاً أنَّ « المطرفَ » هو الَّذى ارتكَبَ هَـذِه الجريمةَ الشَّنْعاء فَسَكَتوا عَلَى غَيْظٍ مكْتوم ، وتجاهَـلوا ! ! وَكَأنَّهُمْ لا يعلَمون ! ! وَأخَـذوا يَتساءلونَ كما يتساءلُ النَّاسُ : مَنْ المجرمُ القاتِل ! ؟

(٢)

وَصَدَرَ أَمْرُ عَبدِ اللهِ إلى ماريا أن تعودَ إلى جَناحِ الإمارة فى قَصْرِهِ ؛ لِيَكونَ وليدُهاَ فى رِعايةِ جَدِّهِ ، وَتحتَ سَمْعِه وَبصَرِهِ .

وَما كادَ عبدُ الرَّحمنِ يَبْلُغ أَشُدَّه حَتَّى ظهرت نجابَتُه ، فأَحَبَّهُ جَدُّه ، وزادَ إقْبالُه عَلَيْهِ . . وَكان إذا رَآهُ يَحْتَضِنُه ، وَيمْسَحُ عَلَى كَتِفهِ وَيقولُ : تُذكِّرُنى يا عبدَ الرَّحمنِ بِأَبيكَ محمَّد . . أَراكَ فى سَماحَتِه ، وَجَمالِ مَلامِحِهِ . . وإنْ شاءَ اللهُ تكون فى ذكائهِ وَشَجاعَتِه . .

* * *

وأَحْضَرَ له كِبارَ الْفُقهاء يُعَلِّمونه الدِّينَ ، وكبار العُلماء يَدْرسُونَ له الْعِلْم وكِبارَ الأدباء يَرْوونَ له الأدب والشِّعْرَ ، وأَمْهَر المحاربينَ يُلَقِّنونَهُ أُصولَ الْفُروسِيَّةِ وَالحرْب .

فَحَفِظَ الْقُرْآنَ وهُوَ طِفْلٌ لم يجاوِز العاشرة من عمْره ، وَبَرَعَ

فى النَّحْوِ والشِّعر ، وَأَظْهَرَ مَهارَةً فائِقَةً فى فُنـــون الْحَرْبِ وَالْفُروسِيَّة ، حَتَّى صارَ فَخْر جَدِّهِ ، وَحَدِيثَ أَعْمامِهِ ، وَمحلَّ تقْدِيرٍ عِنْدَ الأَنْدلسيين جَمِيعاً . . فَزادَ إِقْبالُ جَدِّه عَلَيْهِ ، وأَجْلسه بِجوارِه . وقدَّمه للوافِدِينَ عليهِ ، وَدرَّبه على حُكم البلاد .

وَكثيراً ما كان أَعْمامُه يَذْهبونَ على رَأْسِ الجيوش لمقاتلة الثوَّارِ بأَقاليمِ الأَندَلس ، وَيذْهَبُ جَدُّه لحرْبِ أَعْدائِهِ فى شمال أَسْبانيا ، وَيبْقَى عَبدُ الرَّحمن فى قرطبةَ ، يُدِيرُ شئونَ الْقَصرِ ، ويتحمَّلُ أَعباءَ الْمُلكِ ، وَيجْلسُ لِلقضَاءِ بَيْنَ النَّاس . . .

ويعودُ أَعمامُه من الغَزْوِ ، ويرْجِعُ جَدُّه من القِتالِ فيَجِدونَ النَّاسَ يَلتَفُّونَ حَوْلَ « عبدِ الرَّحمن » يَتَحَدَّثون عَنْ عَدْلِه ، ويُثنون على ذكائِهِ ، وحُسْنِ تَدبيره .

* * *

وذاتَ يَوْمٍ دَخَلَ جدُّهُ على والِدَته « ماريا » فرآها لا تزالُ حَزِينَةً يائِسَةً مُنْذُ أَن فارقها زَوْجُها « محمد » . . فأَقبَلَ عَلَيْها مُلاطِفاً .

— يا أمَّ عبدِ الرحمن : لقد أنجبْتِ للأندلُس أذكى فِتيان بنى أُميَّة وأشجعهم جميعاً . .

— الفضْلُ لكَ يا مولاى ؛ فعبدُ الرَّحمن فرْعٌ من أصْلٍ كريم . . أبيه . . وجدِّه ! !

— لقد عَوَّضَنِى اللهُ فيه خَيْرا . . إنَّنى أنظرُ إليه ، فيُخَيَّلُ إلىَّ أنَّنى أنظرُ إلى ولَدِى « محمد » . . لقد قرَّرْتَ أن أُرَشِّحَه لِرياسَةِ الأندلس مِنْ بَعْدى ! ! .

صَرَخَت مارْيا ، وأمْسكت بِيَدِ الأميرِ عبدِ الله ، وقالت :

اسْتَحْلِفُك بالله لا تَفْعَلْ . . فإنَّ ولدَك محمَّدا قد ذَهَبَ ضَحِيَّةَ الرِّياسَةِ أبْقاكَ الله يا أميرَ الأندلُس ، وأطالَ حَياتَكَ ! ! وَلدى عبد الرَّحمنِ لا يزالُ حَدِيثَ السِّن ، وَأخافُ إنْ رَشَّحْتَه لِرياسَةِ الأندلس أن يَحْقِدَ عَلَيْـــهِ أعمامُهُ ! ! . . لا تَفْعل يا أمِير الأندلس . .

فقالَ الأمير . .

— لا تَفزَعِي يا ماريا ، فإنَّ وَلَدَكِ يَتَمَتَّع بِعَطفٍ كبيرٍ وَتَقْدِيرٍ مِنْ أعمامِه جَميعاً إنَّهمْ يُقَدِّمونَه عَلَى أنفسهم تَقْديراً لِذكائِهِ ، وَبُطولاتِهِ ، ووفاءٍ لِوالِده .

— أدامَ الله بَقاءك يا مَوْلاى وَمَتَّعَنى وَولَدى — عَبد الرَّحمنِ ، بِعَطْفِكَ الْكَبير .

***

أقْبَلَتْ ماريا عَلَى وَلَدِها عبدِ الرحمن ، وَمَسَحَتْ عَلَى كَتِفِهِ ، وَقَبَّلَتْهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقالت :

— يا بُنَيّ . . هَنيئاً لَك مُلْكُ الأندلسِ . . إنَّ جَدَّكَ قد بَشَّرَنى بذلكَ وَقالَ : إنَّه سَيَأخُذُ الْبَيْعَةَ لَكَ مِنْ أعْمامِك وَمِنْ كِبارِ الرِّجال فى دَولَته . .

فابْتَسَمَ عَبْدُ الرَّحمن وقال :

— ذلِكَ بِفَضْلِك يا أُمِّى . . فأنا قِطْعَةٌ مِنك ، وَأنْتِ الَّتِى هَيَّأتنى لهذه المكانة . .

الجد يخبر ماريا بأنه ســـيولى ولدها ملك الأندلس وهى تفزع وتقول له : لا تفعل وهو يقول لها : لا تفزعى ٠

— حَرَسَكَ الله يا بُنَيَّ ، وَرَدَّ عَنْكَ كَيْدَ الحاسدين ! !

وَسَكَتَتْ قَلِيلا . . وَقَدْ شَرَدَ عَقْلُها ثُمَّ قالت فَجْأَةً :

يا بُنَيَّ أُوصِيكَ خيراً بأخْوالِك الأسبانِ . . اعْطِفْ عَلَيْهِمْ ، وَقَرِّبْهم مِنْك ، وَاتَّخِذْهم حُرَّاسًا لِمُلْكِكَ ، وَأُمَراء لِجَيْشِكَ ، وَأُمَناء عَلى دَوْلَتِك . .

— سَمْعًا وَطاعَةً يا أُمَّاه ! !

— يا بُنى . . أَحْمَدُ الله . . لقدِ اسْتَجابَ لِي ، وَحَقَّقَ أُمْنِيَّةً غَالِيَةً كُنْت أَتَمَنَّاها لِوَالِدِك — يَرْحَمُهُ الله — لقدْ كانَ بَطَلا ! !

ثُمَّ اقْتَرَبَتْ مِنْه ، وَقالتْ بِصَوْتٍ هَادِىء يُخالِطُه البِشْر . .

وَقد اخْتَرْتُ لَكَ مِنْ بَيْنِ الأسْبانِ فَتاةً ذاتَ حُسْن وَجَمالٍ ، وَنَسَبٍ وَمال ؛ لِتَكونَ بِجِوارِك ، تُعاوِنُكَ وتَجْمع النَّاس حولكَ ، وَتُفِيدُك بمالها ، وَحُسْنِ تَدْبيرها لِلْأُمور ! !

ابْتَسَمَ عَبْدُ الرَّحْمن . . وَقالَ :

— مَنْ هذِهِ الْفَتاة يا أُمِّى ؟ !

— أنتَ تَعرِفُها وَقد حَدَّثتكَ عنها .

— تَقصِدينَ « الزَّهراء » .

— نَعَمْ أَقصِدُ الزَّهْراء يا بُنَيَّ . . لقد اختَرْتُها لكَ ! !

— أَنَا سَعِيدٌ بها يا أُمّى . .

— وَهِيَ سَعِيدَةٌ بك يا بُنَيَّ . . إنَّها أَسْبانِيَّـةُ الأَصْلِ ، وَسَوْفَ يَزيد إقبالُ الأندلسيين عليكَ لأنَّكَ اختَرْتَ عروسَك منَ الأَسْبانِيَّاتِ

***

وَفى شَهرِ رَبيع الأوّل سنة ٣٠٠ هـ تُوُفِّىَ الأَميرُ عبدُ اللهِ تَخلَفه على عَرْشِ الأندَاسِ حَفِيدُه عبد الرَّحمن ، وكانَ فى الثَّالِثَةِ وَالعِشْرين من عُمْره ، فتًى كلُّه شَبابٌ وَحَيَوِيَّة ! !

فأَقْبلَ عَلَيْه النَّاسُ يُبايعُونه ، وَاسْتَبْشَروا بِعَهْدِ سَعِيد ، وَعَمَّت الفَرْحَةُ الأندلسَ كلَّها . .

قَلْبَان كانا فى سَعَادَةٍ غامِرَة :

قَلبُ ماريا الأسبانِيَّةِ ، وقلبُ الزَّهْراء زَوْجَةِ الأَميرِ الجديد « عَبْد الرَّحمنِ بنِ مُحَمَّد » .

وَقلبان مزّقتهما الهُموم :

قلبُ تُوطا . . وقلبُ ابنها . . !!

لقَدْ تَرَكا قُرْطُبَةَ وَهاما على وَجْهِهما فِي البِلادِ ، فلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ لَهُما مَصِيرا . . !

(٣)

وَاسْتَقْبَلَ الأَمِيرُ « عبد الرحمن » عَهْدَهُ بِالْحَزْمِ ، فَلَمْ يُسَالِمِ الثَّائِرِينَ مِنْ أَهْلِ طُلَيْطِلَةَ ، وَبَطَلْيوسَ ، وَتَدْمِيرَ ، وَبَلَنْسِيَةَ كما كانَ يَصْنَعُ جَدُّه ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ نظير اسْتِقْلالِهِمْ بِهذِهِ الْبِلادِ ، يَتَصَرَّفونَ فيها كما يَشاءونَ ؛ فَقَدْ حَضَروا إِلَيْهِ يُساوِمونه وَيُغرونَه بِتَقْدِيمِ الْجِزْيَةِ مُضاعَفَةً . . فقالَ :

تُرَى مَنْ الأَمِيرُ إِذَن : أَنا أَمْ أَنْتُمْ ؟ !

لَيْسَ فِي الأَنْدَلُسِ إِلَّا أَمِيرٌ وَاحِدٌ « عبدُ الرَّحْمنِ بن محمد » فاخْتاروا لِأَنْفُسِكُم ، إِمَّا أَنْ تُسْلِموا الْبِلادَ ، وَتَفْتَحُوا الْحُصونَ ، وَتَدْخلوا فِي طاعَتِنا أَو الْحَرْبُ . . والْمُنْتَصِرُ مِنَّا يَتَوَلَّى حُكْمَ الأندلس . . !

فأَجابوا . . : كما تشاء أَيُّها الأَمِيرُ . . سَنُفكِّر فِي الأَمرِ . .

***

وَرَجَعَ الثَّائِرون إِلى بِلادِهِم ، وَأَعْلنوا عِصْيانَهم ، وامْتَنعوا

بحُصونِهِمْ فَصَدَرَتْ أَوامِرُ « عبدِ الرَّحمنِ » لِجَيْشِهِ بالْمَسيرِ إِلَيْهِمْ ، وَمُهاجَمَةِ حُصونهم وَأَعْلَنَ بأَنَّه سَيُصاحِبُ الجَيْشَ لِيَتَوَلَّى قِيادَتَه ، وَيُشارِكَ الْجنودَ فى خَوْضِ المعارِكِ ، فتفجَّرَتْ حماسَةُ الجنودِ ، وسارعَ شَبابُ قرطُبَةَ إلى الإنْضمامِ إلى جَيْشِها الزاحِف .

***

وَخاضَ الْجَيْش بِقِيادَةِ الأميرِ معاركَ دَامِيَةً فى طُلَيْطِلَةَ ، وَبَطَلْيوسَ ، وتَدميرَ وَبَلَنْسِيَةَ ... وَضَرَبَ الأميرُ أَرْوَعَ الأمْثِلَةِ فى الصُّمودِ أَثْناءَ الْقِتالِ ، وَفى الثَّباتِ أَثْناءَ مُبارَزَةِ الْقادَةِ ، وَمُهاجَمَةِ الأبطالِ .. فأعْطَى للثَّائِرينَ دُروسًا قاسِيَةً ، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً لمن تُحَدِّثُهُ نفسُه بِالْخُروجِ عَنْ طاعَتِه ، أو عِصْيانِ أَوامِره .

***

وطارَت أَخْبارُ هذِهِ الانْتِصاراتِ إلى الْعاصِمَةِ « قُرْطُبَةَ » فَهَلَّلَ النَّاسُ وَكَبَّروا . وهَتَفوا بِحَياةِ الأمير ، وَخَرَجُوا لِاسْتِقبالِه ،

والتَّرْحِيب بِهِ وَمُصاحَبَةِ مَوْكِبِهِ إلى الْمَسْجِد الْجامِع الْكبِير .

وهُنا وقَفَ شَيْخُ الْقُضاةِ « محمدِ بنِ زِياد » وأشادَ بِشَجاعَةِ الأمير وَجُرْأته ، ثم قال :

وَتَقْدِيراً لِفَضْل الأميرِ عبدِ الرَّحمن فى الدِّفاعِ عن الإسْلامِ وَحِمايَةِ المسلمينَ قَرَّرَ علماء الأندلُسِ وفُقَهاؤُها أن يكونَ خَلِيفَةً لِلْمسْلِمينَ وَأَنَّ اسْمَه مُنْذ الآنَ هو :

« أَمِيرُ المؤمنين عبدُ الرَّحمن النَّاصر لِدين الله »

* * *

فَرِحَ الأمِيرُ عبدُ الرَّحمن بهذا الشَّرَفِ الْعَظِيم ، وأَمَرَ بأنْ تُغَيَّرَ أخْتامُ الدَّولة لِيُكْتَبَ بهذا الاسْمِ الْجَدِيدِ لجميعِ الرُّؤَساء فى الأقْطارِ الإسْلامِيَّة .

(٤)

وَمَرَّت أعْوامٌ سَعِيدَةٌ كُلُّها نَعِيمٌ وَرَخاءٌ ثُمَّ حـدَثَ بَعْدَهَا مالم يُتَوَقَّع النَّاس ! !

بَخِلَت السَّماء ؛ فَلَم تَنْزِلِ الأمْطارُ ؛ ثُمَّ جَفَّت الأنهارُ فاحْتَرَقَ الزَّرْعُ وَتَناثَرَت أوْراقُ الأشْجارِ وَتَساقَطَتِ الثمار ، وَوقع الطَّيْر مَنهُوكاً ، واخـتَرَقَتِ الحَشائِشُ ، فَهَزُلت الماشِيَةُ وَماتَ مِنْها الكَثيرُ . فَلم يَجِدِ النَّاسُ حاجَتَهُم مِن الطَّعام وَالشَّراب .

* * *

جَلَسَ الأمِيرُ عبدُ الرَّحمنِ فى هَمٍّ وَحَزَن ، وَزَاد من هُمومِهِ وَأحْزانِه أنَّ والِدَتَه كانت قد ودَّعت هذه الحياةَ وَفارَقَتْها إلى دَارِ الخُلودِ ! !

وَرَأتْهُ الزَّهْراء شارِدَ الفِكْرِ غارِقاً فى هُمومِهِ وَأحْزانِه ، فاقْتَرَبَتْ مِنه وَقالت :

— مولاى . . أخافُ عَلَيْكَ من هذا الحُزْنِ ، هَوِّن عَلَى نفْسِكَ يا مولاى !

— كَيْفَ لا أَحْزَنُ يا زَهْراء، والشَّعْبُ يكادُ يموت مِنَ الجوع وَالْعَطَشِ ! !

— إنَّ بَعْدَ الْعُسْر يُسرا يا مَوْلاى ! ! وَبَعْدَ الشِّدَّة يكونُ الْفَرَج بإذنِ الله .

وراته الزهراء شارد الفكـــر غارقا فى همومه وأحزانه فاقتربت منه وقالت : مولاى ... أخاف عليك .

مَوْلاى : لقد وَرِثْتُ عن أَبِى الأَسْبانىّ ضِياعاً وَاسِعَةً ، وَأَمْوالا كَثِيرة هِيَ لَك كلها يا أَمِـــيرَ المؤمنينَ ، تَسْتَطِيعُ أن تُقَدِّمَها لِأُمَّتِكَ ! !

لابُدَّ أن نَكونَ قُدْوةً طَيِّبَةً لِأغْنِياء الأندلسِ . . غَداً الجمعة . .

سَأَخْرُجُ لِلصَّلاةِ فى . . المسجد الجامع . . وَعِنْدما يَجْتَمِعُ النَّاسُ لِلصَّلاةِ سَأَصْعَدُ المنبرَ وَأُعْلِنُ بِأَنَّ قصْرِى مَفْتوحٌ لِلْمُحْتاجينَ ، وأَنَّ الموائِدَ سَتُقَدَّمُ لِلْفُقَراء وَالْمَساكِينَ ابْتِدَاءً مِن الْيَوم . .

— وَلَنْ يكونُ ذلِكَ مِنْ مالِكَ وَحْدَكَ يا مَوْلاى . . ولـكِنَّه سيكونُ مِن مالى أيضاً . . كلُّ ما أَمْلِكُ تحتَ تصَرُّفِكَ وَهَدِيَّةٌ منى لِشَعْبِكَ . . حَتَّى يَأْتِىَ الله بالْخَيْرِ . .

— يَتَقَبَّلُ الله مِنِّى ومِنك . . وأَرْجو أَن يكونَ فَرَجُه قَريباً يا زَهْراء . .

سَأَحْمِلُ بِنَفْسِى الطَّعَام . . وَسَأَجْلِسُ وَسَطَ الْفُقَراء . . وَسَآمُرُ الوزَراء والْحُجَّابَ والْقُوَّادَ وَكِبارَ رِجالِ دَوْلَتى أَن يَصْنَعُوا هذا . .

— وَسَيَفْعل مِثلَ ذلك يا مولاى الأَغْنِياء من أصحابِ الإقطاعِ فى الضِّياع التى أَمْلِـكها . .

* * *

وَتبرَّعَ الأميرُ بالمالِ وَالطَّعامِ ، وَتبرَّعَت الأميرةُ بما تَمْلِكُ من أنواعِ الحبوبِ والثِّمارِ . . حَتَّى فرَغَت الخَزائِن ! !

* * *

وعادَ الأميرُ مَساءً إلى قَصْرِه بَعْدَ يَوْمٍ طَويلٍ شاقٍّ ، قَضاه بَيْنَ المحتاجينَ من شَعْبِهِ ، فاسْتَقْبَلَتْه الزَّهراء بابْتِسامَةٍ مُشْرقَةٍ ، تحاولُ بها تَخْفِيفَ آلامِه ، فقالَ وَالهمُّ يكادُ يَعْتَصِرُ فؤادَه :

— لو عَلِمْتِ ما أَعْلَمُ يا زَهْراء ، ما ظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِكِ هذه الابتِسامةُ ! !

— ماذا حَدَثَ يا مَوْلاىَ ؟ !

— أَعْداؤُنا فى الشَّمالِ عَلموا بِالْقَحْطِ الَّذى نَزَل بِالأَنْدَلس ، فانْتَهَزُوها فُرْصَةً . . وزَحَفوا عَلَى بلادِنا ، وَمَعَهُمْ أَلْوانُ الْبُقولِ وَأَنْواعُ الطَّعامِ يُقَدِّمونها للنَّاسِ ، ويَسْتَوْلونَ مُقابِلَ ذلِكَ عَلَى الاسْلِحَةِ والمنازِلِ وَالْحُصونِ ، فإذا لم يُقَدِّم لَهُمْ النَّاسُ المنازِلَ والْحُصونَ هاجموهم بِالْحَدِيدِ والنَّار ! !

إنَّهُمْ يَسْتَوْلونَ الآنَ عَلَى المـدُنِ ، ويَقْتُلونَ النِّساء والأطْفالَ والشُّيوخَ من غَيْرِ شَفَقَةٍ ولا رَحْمَةٍ ! !

— يالهم مِنْ مُجْرِمِينَ ؟ ! وماذا تَصْنَعَ يا مَوْلاى ؟ !

— لا شَيْءَ يا زَهْراء ! ! لا أَمْلِكُ غَيْرَ التَّوَجُّهِ إلى اللهِ أن يُنْقِذَنا مما نَحْن فيهِ من عَذابٍ شَديد .

— وجَيْشُكَ الضَّخْم يامَوْلاىَ . . أَيْنَ شَجاعَتُه وَبَسالته ؟ !

— لا تقُولى جَيْشِى يا زَاهراء . . قَضَى الْقَحْطُ عَلَى شَجاعَتِه ، وَلا يَسْتَطِيعُ أن يَتَحَرَّكَ لِيَأْخُذَ طَريقَه إلى الأعْداء فى بِلادٍ لا نَباتَ فيها ولا ماء ! !

— صَبْرًا يا مَوْلاى وَسَيَأْتى الْفَرجُ .

— وَلَقَدْ عَلِمْتُ ما هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذلِكَ : إنَّ « الْفَاطِمِيِّينَ » فى إفريقِيَّةَ يُفَكِّرونَ فى غَزْوِ الأنْدَلسِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى بِلادِنا ! !

— لَنْ يكونَ ذَلِكَ يا مَوْلاى . ما دَامَ فى الأنْدَلُس أَمِيرُ المؤْمِنِينَ « عبد الرحمن الناصر » .

— أَخْشَى إِن يَتَسَرَّبَ الضَّعْفُ إِلَى الأَنْدلسِ كما تَسَرَّبَ إلى العَبَّاسِيِّينَ فى بِلادِ المشْرِق . . إِنَّهُمْ الآنَ يُقاسونَ مِنْ أَعْدائِهم الَّذِين يُغيرونَ على دَوْلَتِهم مِنْ كلِّ جانِب .

— لا يُسَيْطِر الْيَأْسُ على نَفْسِكَ يا مَوْلاى . . فلا تَزالُ هَيْبَتُكَ تَمْـلَأُ النُّفوسَ وَتُخِيفُ الأَعْداء ! !

* * *

وَيقومُ الأَمِيرُ فى جَوْفِ اللَّيْلِ يَدْعو اللهَ ويَسْتَغِيثُ بِهِ ، ويُصَلِّى.

يقوم الامير فى جوف الليل يدعو الله

وَالمسلمون فى مَساجِدِهِم ، والنَّصارَى فى كَنائِسِهِم كلُّهم يَتَّجِهونَ إلى السَّماء : اللَّهُمَّ نَجِّنا مِنْ هَذا القَحْط . . اللَّهُمَّ أَنْزِلِ المطر . . اللَّهُمَّ أَنْقِذِ الحَيَوانَ وَالطَّيْرَ . اللَّهُمَّ ارْحم الشُّيوخَ والنِّساء والأَطْفالَ .

وَاسْتَجابَ اللهُ فامْتَلأَتِ السَّماءُ بِالسَّحابِ ، وَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ فَنَزَلَ المطرُ غَزيرا ، يَسْقِي الأَرْضَ ، وَيُنْعِشُ الشَّجَرَ ، وَخَرَجَ الرِّجالُ والأَطْفالُ مِنْ بُيوتِهِم يُكَبِّرونَ وَيُرَدِّدونَ : بِاسْمِ اللهِ اللهُ أَكْبَرُ ، حَمْدًا لَكَ يارب .

* * *

وَبَعْدَ أَيامٍ قَليلة عادَتِ الحياةُ إلى الأَندَلُس ، وَأَفاقَ النَّاسُ مِنْ تِلْكَ الشِّدَّة ، فأَكلوا وَشَرِبوا ، وَعادَتِ النَّضارَةُ إلى وُجوهِهِمْ ، والطُّمَأْنِينَةُ إلى نُفوسِهِمْ .

(٥)

وَفى صَبَاحِ أَحَدِ الأَيَّامِ صاحَ النَّاس صَيْحَةَ الحرب : إلى الأعداء فى الشمال . . إلى الأعْداء . . إلَى الاعْداء ! !

وَانْطَلَقَتْ هَذِهِ الصَّيْحاتُ مِنَ الدِّينَ أَتَوْ إلى قُرْطبَةَ من شمالِ الأندلس ، يَسْتَغِيثونَ بأميرِ المؤمنينَ وَحامِى المسْلمِينَ الناصر لدين الله وَسَمِعَ الأمِيرُ هذِهِ الصَّيْحات فاسْتَجابَ لها فِى الْحالِ فقدْ كانَ هوَ وقُوّادُ جيوشِه يَتَرَقَّبُونَ أَوّل فُرْصَة لِمواصَلَةِ الْجِهادِ وردِّ الْعُدوانِ عَن المسلمينَ .

وعَقدَ أَمِيرُ المؤمنين مَجْلِسَ الْحَرب ، فاجْتَمَعَ بِقُوّادِ جُيُوشِهِ ، وَوَضَعَ خُطَّةَ لمهاجَمَةِ أَعْدائهِ ، فاخْتارَ لها أَمْهَرَ الْقوّادِ ، وأَكْفأَ الجُنودِ وَحَدَّدَ لَها الطرُقَ التى تَسْلُكَها حَتَّى تَصِلَ إلى أَرْضِ الْعَدُوِّ ، وَزَوَّدَها بِأَسْلِحَةٍ حَدِيثةٍ انتَجَتْها التِّرْسانَةُ الإسْلامِيَّةُ فى مَدِينَةِ « المرية » ، وَحَذَّرَ الْقائِدُ مِنْ خِداع الأعْداء ، وَدَعام

إلى اليَقظةِ فى حَرْب الصَّحْراء ، وأَمَرَهم أن يُوافوهُ بالأخْبار أوّلاً بأوّلَ ؛ لِيَكونَ على علْمٍ بِأحْوالِهمْ ومَدى قُدْرَتِهمْ على لِقاء عَدُوِّهم . .

وقال : إنَّكمْ تُقاتِلون أعْداء الحَقِّ أعْداء المسلمين « قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأيْدِيكُمْ ، ويُخْزِهِمْ ، وَيَنْصرْكُمْ عَلَيْهم ، وَيُشْفِ صُدورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » .

* * *

وَغادَرَتِ الجُيوشُ قُرْطبَة ، وَسْطَ حَفاوَةِ الشَّعْبِ ، وَالْهُتافِ لها بالنَّصْر وَقد وَدَّعَها الأميرُ بِنَفْسِهِ ، وَسارَ مَعها حَتى جاوَزَت أسْوارَ المدينة فَظَلَّ وَاقِفاً يُلَوِّحُ لها بِيَدِهِ ، حَتَّى اخْتَفَتْ عَن الأنْظارِ .

وَكانَ الْجُنودُ فى شَوْقٍ إلى الْحَرْبِ ، فواصَلُوا مَسِيرتهم حَتَّى الْتَقَوْا بِأعْدائِهِمْ الأسْبانِ فى شَمالِ الأنْدلُسِ . . حَيْثُ الصَّحراء الممتَدَّةُ بِجِبالِها وَصُخورِها وَوِهادِها فى جَنوبِيِّ فرَنْسا . . وَدارَت

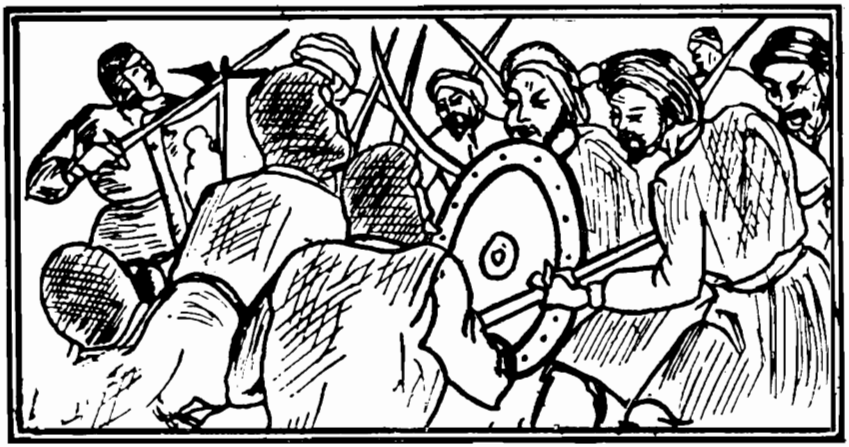

ودارت معارك عنيفة ...

مَعارِكُ قاسِيَةٌ حَوْلَ الحصونِ وَخَلْفَ الأسْوارِ فِي المدُنِ وَالْقُرى . .

وفى السُّهولِ والْجِبالِ .

***

واسْتُشْهِدَ كَثِيرٌ من المسلمينَ فى هَذِهِ الْحروبِ ، وكَانَ عَدُوُّهم عَنيفاً ، فَقَدْ كَوَّنَت الْولاياتُ الشَّماليَّة جَبْهَةً مُتَّحِدَة ضِدَّ المسلمين وجاءتهُم المعونات وَالإمْداداتُ مِنْ فَرنْسا وَبَعْضِ بِلادِ أُوربَّا ، وانهزَمَ المسلِمونَ فى بَعْضِ المعارِكِ ، ولـكِنَّهمْ اسْتطاعُوا أَن يحَوِّلوا الْهزِيمَةَ إلى نَصْر بَعْدَ أَن أَرْسَلَ إِلَيْهِم الأمـيرُ عبدُ الرحمن مَدَدًا مِنَ السِّلاحِ وَالرِّجال .

***

وَكانَ الأمير لا يُطيقُ الجلوسَ فى قَصْرِهِ انتِظارًا لِلأخْبار تَأْتِى إلَيْهِ مِنْ مَيادينِ القِتالِ ، بَلْ كانَ يَخْرُجُ إلى مَداخِلِ قُرْطُبَةَ ، يَتَرَقَّبُ الرُّسل ، وَيَسْتَقْبِلُ الأخبار .

وَاسْتَمَرَّت هذه الحروبُ أعْوامًا طِوالاً ، تَنْتَهِى حَرْبٌ وَتَبْدَأُ أُخْرَى يُوَدِّعُ الأَمِيرُ جَيْشًا وَيَسْتَقْبِلُ آخَر ، قادِمًا إلى قُرْطُبَةَ رافِعًا راياتِ النَّصْرِ ، عائداً بالأسْلابِ وَالْغَنائِم .

وَيعودُ إلى قَصْرِهِ فَيَجِدُ الزَّهراءَ فى استقبالِهِ مُشْرِقَةً كالشَّمْس ، رائِعَةً كالْبَدْرِ ، هادِئَةً كالنَّسيمِ ، ناضِرَةً كأوْراقِ الْوَرْدِ تَقولُ :

— مَرْحَبًا يا أميرَ المؤمنينَ . . هَنيئًا لكَ وَلِجُيوشِكَ بالنَّصْرُ المبين . أَلَم أَقُلْ لَكَ إنَّ عَهْدَكَ سيكونُ أَسْعَدَ الْعُهود ؟ !

فَيُجيبُ الأَمِيرُ بِفَرَحٍ وَغِبْطَةٍ :

صَدَقْتِ يا زَهْراء . . الانْتِصاراتُ تَتَوالى . وَالْغَنائِمُ كَثيرةٌ لا يُحصيها الْعَدُّ . . !

— خَيراتٌ تَتَدَفَّقُ عَلَى خَزائِنِكَ يا مَوْلاى ، وَنَعيمٌ يَعِيشُ فيه شَعْبُك ، وَنَهْضَةٌ رائِعةٌ فى الْعِلْمِ والدِّين ، وَمَكانَتُكَ الْعالِيَةُ تَشْهَدُ بها الدُّنيا الآن ! .

— أَحْمَدُ الله يا زَهْراء . . آلافٌ مُؤَلَّفةٌ تَأْتى إلى خَزانَةِ الدَّوْلَةِ كلَّ يَوْمٍ من الزِّراعَةِ ، وَآلافٌ مُؤَلَّفةٌ من التِّجارَة ، وآلافٌ مُؤَلَّفة من الصِّناعَةِ ، إنَّ الْوُزَراء وَالْحُجَّابَ وَأَصْحابَ الْخَراجِ وكُتَّابَ الدَّوْلَةِ قَدْ أَعْلَنُوا عَجْزَهم عَنْ حَصْرِ الأَمْوالِ الَّتى تَتَدَفَّق عَلَى بَيْتِ المال كلَّ يَوْمٍ ! ! ماذا نَصْنَع بهذا كلِّه يا زَهْراء ؟

وَقَبْلَ أَنْ تُجِيبَ عَنْ سُؤَالِهِ قال :

سَأَجْعلُ الأَندَلُس أَقْوى دَوْلة فى أُوربا . . سَأُعَزِّز جَيْشَها الْبَطَل بآلافٍ من المغارِبَةِ ، سَأُغْدِقُ عَلَيْهم الأموالَ لِيَعْبُروا إلى الاندَلُسِ ، ويكونوا قُوَّة فى جَيْشِها . . سَأُقَوِّيهِ بآلافٍ من الصَّقالِبةِ من أَسْبانيا وأُوربَّا فَعَهْدِى بهم أَنَّهُمْ مَهَرَةٌ فى الْحَرْبِ .

أَصْدَرْتُ أَمْرِى إلى دارِ الصِّناعَةِ فى « المريَّةِ » أن تَبْنِى مِائَةَ سَفِينةٍ حَرْبِيَّةٍ أُعَزِّزُ بها الأسْطولَ ؛ لِتكونَ لى السَّيْطَرَةُ عَلَى الشَّواطىء والْجُزُرِ وَالسِّيادَةُ عَلَى الْبَحْرِ الأبيضِ .

ستكون لى السيطرة على الشواطىء والجزر

وعَلَى هذا الأسْطولِ يا زَهْراء ، سأعْبُرُ إلى بلادِ المغْرِب ، وَانْتَزِعها مِنَ الفاطِمِيِّينَ الَّذينَ كانوا يهَدِّدون بغَزْو بِلادِنا .

***

وتحقَّقَ لأمِيرِ المؤمنينَ النَّاصِرِ لدينِ الله ما أرادَ ؛ فقدْ امْتَدَّ سُلْطانُهُ إلى بلادِ المغْربِ ، وَأرْهَبَ أعْداءه فى الشَّمال ، وَجَعلَ امْبراطورَ الرُّومِ وَمُلوكَ بلْغاريا وَفرَنْسا وألمانيا وَيَطْلبُونَ مَودَّته ، وَيَتَمَنَّوْنَ صَداقته وَيَرْجون مِنهُ الأمان .

(٦)

جَلسَ الأميرُ فى شُرْفَةِ قَصْرِهِ ، والشَّمْسُ تَدْنو مِنَ المغيبِ ، والنَّسيم يَمُرُّ رَقِيقاً مُنْعِشاً ، وَبِجِوَارِهِ الزَّهْراء أَحَبُّ نِسائِهِ إِلَيْهِ : فلاطَفَها بقَوْلِهِ :

— يَرْحَم الله والِدَتى لَقَدْ قالت يَوْمَ أَن اختارَتْكِ عَروساً لى : سَتكونا سَعِيدَيْنِ !

— وهل أَنْتَ سَعِيدٌ حَقًّا يا مَوْلاى ! ؟

— كلُّ السَّعادَةِ يا زَهْراء . . ازْدِهارٌ فى الزِّراعَةِ وَالصِّناعَةِ وَالتِّجارَةِ ، وَشَعْبٌ آمِنٌ يعيشُ فى نَعِيمٍ وَاسْتِقْرار . . وَأَنا أَمِيرُ المؤمنينَ النَّاصِر لِدِينِ اللهِ .

وَأَنْتِ يا زهْراء . . هَلْ أَنْتِ سعيدة ؟ !

— أَجابَت الزَّهْراء فى دَلال :

— مَوْلاىَ بَنَيْتَ الْحُصونَ وَعَمَّرْتَ المساجِدَ ، وَسَيَّرْتَ الْجُيُوشَ

وَفَتَحْتَ الْبِلادَ ، وَالأَمْوالُ لا تَزالُ مُكدَّسَةٌ فى خَزائِنِك . . وَلِىَ أُمْنِيَةٌ هَلْ تُحَقِّقُها يا مَولاى ؟ !

اعْتَدَل الأمِير فى جَلْسَتِهِ وَقالَ :

نَعَم . . ماذا تُرِيدِينَ يا زَيْن النِّساء ؟

تَبْنِى لى وَلَكَ مَدِينَةً جَدِيدَةً ، وَتنقل إليها عَاصِمَةَ مُلْكِكَ ، وَرِجالَ دولَتِكَ .

— سَأَصْنَع . . وَنُسَمِّيها « مَدِينَةَ الزَّهْراء » .

— بِشَرْط أَن تكونَ قُصورُها . .

فقاطَعَها النَّاصِرُ قائلا :

مِنْ أَىِّ شَىء يا مَوْلاتى ؟ !

— مِنَ المرمر : الأَبيضِ والأَخْضَرِ وَالْوَرْدِىِّ .

— وَماؤُها ؟ ! قالت :

— تحمِلُه الأَنْهارُ مِنْ رُؤُوسِ الجِبالِ .

ضَحِكَ الأمِيرُ وَقالَ :

— وَحَدائِقُها الَّتى تحيطُ بها ؟ قالت .

— حافِلَةٌ بأَنواعِ الأشجارِ وَالأزهارِ ، مُزْدانَةٌ بالْبُحَيْراتِ وَصَهاريجِ الزِّئبقِ ، مُجَمَّلَة بتماثيلِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّة المرصَّعَةِ بالدُّرِّ وَالْياقوتِ ، وَعَلَى أَنْ يكونَ فيها يا مَوْلاى ؟

— أَىُّ شَىء يَا مَوْلاتى ؟ !

أحواضٌ لِلأسْماكِ الملوَّنَةِ ، وَمَسارحُ للطُّيورِ الْكاسِرَة ، وَمَجالاتٌ لِلوُحوش المُفْتَرِسَةِ .

***

وَأَصْبَحَ الْحُلْمُ حَقِيقَةً ، وَصَدَرَت أَوامِر « عَبدِ الرَّحْمنِ النَّاصر » لمديرى شئون المالِ ، وَلِلمُهَنْدِسِين وَالْعُمَّال . . .

***

وَعَلَى بُعْدِ سَبْعَةِ أَمْيالٍ مِنْ قُرْطُبَةَ رَبْوَةٌ عاليةٌ أَقامُوا عَلَيْها قَصر الْخَلِيفَةِ وَمُقامَه الخاص . .

وَبالْقُرْبِ مِنه مساكنُ الْحاشِيَةِ وَرِجالِ الْحَرَس .

وَفى أَسْفَلِ الرَّبوةِ أَقاموا الْبَهْوَ الْعَظِيم لِاسْتِقْبالِ السُّفراء وَأَكابر الْمُلُوكِ .

فلمَّا صارت المدينَةُ تُحْفَةً رائِعَـةً مِنَ الْفخامَةِ وَالْجلالِ تَحُفُّ بِقُصورها أَروَعُ المنازِه وَأَجْمَلُ الْبساتين انتَقَلَ إليها أَمِيرُ المؤمنين الَّذِى حكم الأندلُسَ خمسين عاماً تُصاحِبُه زَيْنُ النِّساء زَوْجَتُه الزَّهْراء .

وَعاشا مَعًا فى هَناءةٍ وصَفاء .

***

لقد كان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر شجاعا عادلا .

فهل تحب أن تعرف قصة أمير آخر أثار إعجاب الناس ؟

اقرا القصة التالية :

الزاهد المحارب

المنصور بن أبى عامر